عيسى

مريم ابنة عمران التى كفلّها ورباها زكريا فى المحراب ،

﴿ وَالَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا وَجَعَلْنَاهَا وَابْنَهَا آيَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴾

(الأنبياء الآية ٩١)

* * *

﴿ وَإِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَىٰ نِسَاءِ الْعَالَمِينَ ﴾

(آل عمران الآية ٤٢)

﴿ إِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٥﴾ وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴾

(آل عمران الآيتان ٤٥/٤٦)

* * *

واذكر فى الكتاب مريم ، إذ انتبذَتْ من أهلِها مكانا شرقيًّا ، فى دارها ، ودخلتْ خَلْف ستارٍ ، اتخذته حجابًا بينها وبينهم ،لتستحمّ فأرْسلنا إليها جبريل روحَنَا ، فتمثّل لها بشرًا سَوِيًّا ، جميلَ الخلْقِ لطيف الطَّلعة مُستوِىَ التكوين .

فلما رأته وهى عُرْيانة ، فَزِعَتْ لوجود إنسان فى حمَّامها ، فهو شابٌّ ، وغريبٌ ، ويقتحم عليها مع أنَّها استترتْ عن أهلها ومَحارِمها ، قالت : إنِّى أعوذ وأحتمى بالرحمن منك ، حتى

لو كنت رجلاً عابدًا تقيًّا ، حتى لو كنت معْتصمًا بدينك ، يَرْدَعُك عن إرادة السُّوء لى ، فكيف بك إذا كنت فاجرا جريئا تبتغى الشَّر مِنى ؟

قال جبريل

﴿ قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا ﴾

(مريم الآية ١٩)

فاندهشت العذراء البَتول ، وفَزِعَتْ فيه ، تسأله أسئلةً ثلاثةً متلاحقة : من أين يأتينى الوَلَد ؟ وكيف يكون وأنا لم أتزوج بَعْدُ ؟ وأليس عجيبًا أن يكون لى ولدٌ وأنا شريفةٌ عفيفة ، لا أبيع جسدى للناس !

﴿ قَالَتْ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا ﴾

(مريم الآية ٢٠)

وقال جبريل ، وهو فى صورَةِ الشاب الجميل ، فى عَزْمٍ وحزْم وأمر من الله

﴿ قَالَ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ ﴾

(مريم الآية ٢١)

فهذَا الذى تستعظمينه وتستبعدينَه هَيِّنٌ على الله . وتلك هى إرادة الله سبحانه ، والحكمة فى قضائه ، أن يجعله آية للناس ودليلاً على قدرته ، أن يخلق ولدًا من غير أب ، كما خلق آدم من غير أب وأم .

وفى أيامنا هذه شغلتنا جرائد الغرب ومجلاته بالعذارَى الحَوَامل ، وبالعِلْم الحديث الذى لا ينفى أن تحمِل البنتُ وهى عذراء .

يأهل العلم ،حرامٌ عليكم ، لا تحملوا العلم فوق ما يطيق ، وقرروا الحقائق إن كنتم صادقين . قولوا : إن العلم لا يمنع أن تتسرب البويضة من نطفة الرجل إلى رحم البنت ،فتلتقى بجرثومتها ،فتتزاوج البويضتان ، فيكون الحمل ، وتنعقد نقطة الدم فتتكوَّن العَلَقَة ، ثم تكبر فتكون المُضغة ، ثم العظام فتكسى العظام لحما ، ثم تنبعث فيه الروح فى الشهر الرابع ، فيتحرك ، فتحس به الحامل فى بطنها ، ثم يستكمل أشهر الحمل ، وكل ذلك من خلف غِشاء العُذرة ، وتبقى الفتاة عذراء حتى يحين وضع الحمل ، فيتفتق كلُّ شىء حتى غشاء العذارة .

ذلك ما لا يمانع فيه العلم .

أما الذى لا يصدقه العقل ، ولا يعترف به دينٌ ، ولا ملّةٌ ، ولا خُلُق ، ولا مجتمع ، ولا مجامع أطباء الدنيا ، أن تنعقد نقطة الدم من جرثومة المرأة وحدها .إذ لابد من الكهرباء من سالِبٍ ومُوجب ، والسالب وحده أو الموجب وحده ، لا يخلق كهرباء عاملة .والنبات من بذرة تتجاوب مع خصوبة الأرض .

وما كان أبدًا أن خُلِق جنينٌ فى بطن أمه من غير جرثومة الرجل إلا هذه الحالة المعجزة ، التى لله وحده ، حالة عيسى ابن مريم .

وهنا نسجل هذه الحالة التى وقعت فى ريف من أرياف مصر إذ حملت بنت عذراءُ ، فانقبض لذلك الأهل والأنسِباءُ والمُصَاهرون .

وهمُّوا بها على عادة الريف ليقتلوها .

وكان أن أدركتها عناية الله ، وكان أن رحمها بالحقيقة لما اتَّضحت : كان أبوها الريفى مع أمها منذ قريب ، وقبل أن تنقضى ست ساعات من ذلك اللقاء ،وهى العمر المقررلبقاء الحياة فى جراثيم النطفة ، حدث أن خلع الأب سرواله ،وتركه لبنته لتغسله ، وهى فى بينها تلبس أى غلالة تسترها مادامت من وراء بابها ،وبينما هى تغسل طرق الباب طارق ، فكان لابد لها من أن تفتح الباب للطارق ، ولا تفتح وهى بهذه الغلالة الرقيقة على جسدها ، فلابد أن تلبس سروالاً ، وأىُّ سروال يكفى ، فلبست سروال أبيها ، وفيه الجراثيم المنوية ، فتسرَّبت إليها جرثومة ،إلى رحمها ، فحملت وهى عذراء وكانت هذه الضجة .

هذا هو الرأى ألا حملَ ولا جنينَ إلا من بين امرأة ورجل .

ولابدّ من جرثومة الرجل فلا تكفى جرثومة امرأة كما فى السحاق بين امرأتين .

* * *

يأهل العلم لا تفتحوا هذا الباب ؛ فتُهَوِّنوا جريمة الحمل من غير رجل ، ولابد من رجل ، ظهر أم خفى ، فى حِلٍّ أو فى حرمة ، فذلك شأن آخر .

* * *

لقد شقَّت هذه المعجزة على العقول ، فتحركت لتعليلها ، وأخذ بعض المفسرين للقرآن يتحل لها بعض ما يُهَوِّنُها على الأفهام ، فقال : إن الحكمة فى أن الله بعث جبريل إلى مريم ،وهى عريانة متجردة ، وفى الحمام ، وشكَّله فى صورة شاب قوى بادِن ،وسيم ، جميل الطلعة ، أمرد ، سَوِىِّ الخَلْق ، لتستأنس بكلامه ، و .. ولتهيج بذلك شهوتها ، فتنحدر نطفتها إلى رحمها ، وذاك وقت لتلك !

* * *

وأراد الله يا مريم أن يجعله رحمةً للناس ، يهديهم . يأخذ بيدهم من ظلام الكفر والشرك

إلى نور الهداية والإيمان بالله .وليمحو من عقائدهم نكران عقيدة البعث . ولتُشرب قلوبهم الاطمئنان إلى قدرة الله على الخَلْق بأية صورة ، وعلى الإعادة ، والإعادة أهون من الإنشاء والبدء .

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ﴾

(الروم الآية ٢٧)

وكان لمريم موقفٌ عجيب ، مريم بنت عمران ، التى رُبِّيَتْ فى المحراب ، بكفالة النبى زكريا ، زوج خالتها وهى التى اصطفاها الله وطهَّرها ، واصطفاها على نساء العالمين أجمعين . قُدِّرَ عليها أن تحمل ، وأن يُخلق فى جوفها جنين ، وأن يتحرك ، وأن يكبر ، فيكبر بطنها ، وتظهر عليها أعراض الحمل ، التى ترى على الحوامل ! وماذا يدور فى خلدها ؟ وكيف كان وقع ذلك عليها ؟

وماذا يقول الناس فيها ؟ وماذا يجرُّ ذلك على سمعة أهلها ؟

* * *

لِتكُنْ إرادة الله ومشيئته ، فى بلائه وقضائه ، فلتستتر فترة ، وليكن بعدها ما قدَّر الله .

﴿ فَحَمَلَتْهُ فَٱنتَبَذَتْ بِهِۦ مَكَانًا قَصِيًّا ﴾

(مريم الآية٢٢)

تبعد به عن القوم ، ولتعتكف فى ركن من الدار ، أو فى دار أخرى غير الدار ، وأهلها يعلمون من أمرها ، أنها طويلة الاعتكاف فى التبتُّل والعبادة .

حتى جاءَها المخاض ، وعوارض الوضع ، وما يسبق الولادة ، من وجع وطلق ، واسترخاء فى الجسم ، وترهُّل فى اللحم . تمهيدًا لبروز الجنين ، إلى عالم النور ، وهى وحيدة ، لا مؤنس ،ولا مؤانس ، ولا مشجِّع إلا نخلة فى الدار ، فقامت إليها ، واستندت عليها ، واحتضنتها ، وكلما مزقت فى رحمها الطلقة ، وعُنفَ بها الألم صرخت واستغاثت ، وقالت :

﴿ قَالَتْ يَٰلَيْتَنِى مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا ﴾

(مريم الآية ٢٣)

* * *

وما كان تمنِّيها أن تموت وتُنسى ، من ألم الولادة ، فكل حبلى تقاسى ألما ووجعًا فى ساعة الولادة . وإنما كان ذلك من هول نتائج الولادة ، أن يصبح تحتها ولدٌ ، وتأتى الناس على صياحه ،فتقع أعينهم على حَدَثٍ فاضح ، وأىّ فضيحةٍ أن يكون ولدٌ ولا والد ؟

وليس من وراء ذلك إلا أن ينظروا إليها ، وهى قد خدعتهم بصلاتها وصيامها وقيامها ، وأنها بعد ذلك لم تصُنْ نفسها ، وأنها جرَّت مقالات السوء على أهلها ، وكيف يستقبلون ولدها ؟ أهم يُقون عليه ؟ أم هم قاتلوه وما أذنب ؟ ومن يربِّيه ، وإلى مَنْ تنسبه ، والولد منسوبٌ لأبيه ، وبماذا تسمِّيه ؟

أبيدى أقتله أنا ؟ هو ولدى ! وقطعةٌ حرَّى من كبدى !

أستغفرك ياربى ، فقد وعدتنى ، أنك ستجعله آية للناس ورحمة ، ولا تكون آيتُك ياربى من زنى ، ولا تكون رحمتُك ياالله مِنْ حرام !

أستغفرك يا الله ! ولتكن إرادة الله !

* * *

ومِنْ خلال تلك الأطياف التى تمزِّق رأسها ، سَمِعتْ نداء من تحتها : ألاَّ تحزنى يامريم ، فإن كنتِ وحدك ، فالله معك ، وهو أرحم بك .

إن هذا الوليد الذى نزل منك ، وما يزال تحتك ، سيكون سيدَ الناس ، نبيلاً كريمًا ، وسريًّا عظيمًا ، وقد جعل ربُّك تحتَكِ سَرِيًّا . وسَرِىُّ الناس نبيلُهم وسيدهم .

لا يصلح الناس فوضى ، لاسراة لهم ولا سراةَ إذا جُهَّالهم ســـادوا

* * *

ولا عليك يامريم ، فأنتِ فى غنى عن الناس ، قومى وتحركى ، ولا تتخاذلى وهُزِّى جذع النخلة ؛ يتساقط عليك رطبُها جنيًّا ، فكلى واشربى ، واهدئى ، واطمئنى . وقرِّى عينا .

وأريحى نفسك من كلام الناس ، ولا تَرُدِّى عليهم إذا سألوك ، ولا تغضبى إذا أغضبوك ، ولا تثورى إذا اتهموك ، واخلصى من كل ذلك وأعلنى الصيام عن الكلام ، فالله سيتولى الدفاع عنك ، وسيُعْلن براءَتك .

﴿ وَهُزِّيٓ إِلَيْكِ بِجِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ تُسَٰقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا ﴿٢٥﴾ فَكُلِى وَٱشْرَبِى وَقَرِّى عَيْنًا ۖ فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ ٱلْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِىٓ إِنِّى نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ ٱلْيَوْمَ إِنسِيًّا ﴾

(مريم الآيتان ٢٥/٢٦)

* * *

وكان لابد للمؤمنة ، الواثقة من ربِّها ومن نفسها وعفَّتِها ، أن تطمئن ، وأن تستردَّ قواها ، وأن تقوى مَعْنويَّتها

﴿ فَأَتَتْ بِهِۦ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُۥ ﴾

(مريم الآية ٢٧)

يالَلهْول . ويالَلفضيحة والعار ، مريم العذراءُ البَتُول ، تحمل طفلاً على كتفها ؟ وتدخل على أهلها ؟

ماذا أصابها ؟ أهى تتحدَّاهم بفعلها ؟ أم تَبْغى أنْ يتَستَّرُوا عليها ؟ أم هى جاءَت لتَضَعَ نفسها ووليدَها بين أيديهم ليثأروا لشرفهم منها ؟ وانهالتْ عليها أسئلتهم

﴿ قَالُوا۟ يَٰمَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْـًٔا فَرِيًّا ﴾

(مريم الآية ٢٧)

جُرْمًا لا تُحتمل نتائجه

﴿ يَٰٓأُخْتَ هَٰرُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ ٱمْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا ﴾

(مريم الآية ٢٨)

تبيع نفسها للناس ! ويامريم ، الفاحشة من بَنات الصالحين أفحش !

﴿ فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ ﴾ (مريم الآية ٢٩)

فكانت إشارتها إثارةً لهم ، وإهاجةً لأعصابهم وامتهانًا لتفكيرهم ، فهمُّوا بها

﴿ قَالُوا۟ كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِى ٱلْمَهْدِ صَبِيًّا ﴾

(مريم الآية ٢٩)

وما خلَّصها من أزمتها ، وحَرَج موقفها ، والشر المحيط بها ، إلا رحمةٌ أدركتها ، وبركاتهُ حلَّتْ على ولدها ، فأنطقه الله شاهدًا على براءَتها ، ومُعْلِنًا طهارتها ، ودافعًا هجوم القوم عليها ، ولكن بكلامٍ غير ما يألفون ، وبدفاع غير ما يتوقَّعون .

وأىُّ براءَة وطهارةٍ وقدسية ، أكرم من أن ينطق بها الوليد ؟ وهذه معجزته ، وكرامةٌ لأمه ، فكان أن سجَّل أنه عبد الله ، وعبد الله لا يكون إلا طاهرًا من طهارة ، وأنه عبد الله . وليس ابنَ الله . وأنه نبىٌّ الله منْ عند الله ، لا من عند الشيطان ، وأن الله قد منحه البركة ، وجعله حصنًا لأمه ، وجعل فى علاجه الشفاءَ فيُبرئ الأعمى والأبرص . ويحيى الموتى بإذن الله ، وأن الله وصَّاه أن يكون مصليًا مزكيا ، وأوْصاه أن يكون بارًّا بأمه ، يكرمها ويشرفها ،

وأمره ألاَّ يتجبر ولا يتكبر ، وألا يُشْقِيَ نفسه بالمعاصى ، وألا يُشْقِيَ الناس بطغيانه عليهم أو بإشاعة الفساد فيهم .

وأن الله منحه السلام عليه ، كما سلم على زكريا من قبله ، والسلام أمانٌ يحمله إلى قومه ، فهو فى سَلاَم وأمان من يوم وُلد ، وهو فى أمانٍ من أعدائه الذين هموا بقتله ، يوم رفعه الله ، وفى أمانٍ من غضب الله يوم البعث .

﴿ قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا ﴿٣٠﴾ وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴿٣١﴾ وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا ﴿٣٢﴾ وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ﴾

(مريم الآيات ٣٠-٣٣)

* * *

دفاعٌ طويلٌ عن جناية ، أمام حُكَّام غاضبين ثائرين ، فأبلى عيسى فى دفاعه ، وكسَب البراءَة لأمه ، ورسم معالم دينه ، وخطَّ الخطوط العريضة فى دستور الأخلاق ، ونشر راية السلام على نفسه وعلى قومه .

ومريم تُنصت للدفاع ، وتسجد شكرًا لله على البراءَة وينْزاح هَمُّها ، وتهدأ نفسها ، وتطمئن إلى الله ، فقد صدق وعدُه فيها .

* * *

وهى من أجل هذا ، أدارتْ ظهرها للناس ، وسدَّت أذنيها عما يقولون ، ووضعتْ عيسى بين عينيها ، فاحتضنته وربَّته ، وأقامت به زمنًا فى بلدها الناصرة ، ورحلت به فترة إلى بيت المقدس .

* * *

وبيت المقدس مَربضُ الأديان ومَحِلَّة دين موسى ، ومسكن الأحبار والرهبان .

﴿ وَجَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ آيَةً وَآوَيْنَاهُمَا إِلَىٰ رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ ﴾

(المؤمنون الآية ٥٠)

ويتسلل عيسى ، وهو غلام ، إلى مجالس الأحبار والرهبان ، من علماء اليهود ، من حَمَلة التوراة ، وشارحي التعاليم ، ومعلمي الدين . فيتلمذ عليهم ، ويحاورهم ، ويأخذ عنهم ، ويجادلهم ، ويضيق صدره بما يفتون ، ويضيقون به حين يعترض على ما يقولون .

﴿ وَيُعَلِّمُهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ﴾

(آل عمران الآية ٤٨)

ويبعثه

﴿ وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴾

(آل عمران الآية ٤٩)

وبنو إسرائيل قد ضلوا ، وعموا عن دين موسى ، وأنكروا اليوم الآخر ، والبعث ، وكذبوا بالحشر والحساب على ما قدموا ، وكفروا بالجنة والنار ، وشغلتهم الدنيا بزخرفها وانكبوا على المال يجمعونه من حِلٍ ومن حرام ، حتى تاجروا بدينهم ، واستغفلوا الناس ، ونزفوا ثرواتهم باسم الدين

﴿ إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْأَحْبَارِ وَٱلرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَٰطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾

(التوبة الآية ٣٤)

وكفروا ، وقالوا على مريم بهتانًا عظيمًا ، واتهموها ، ونهشوا عرضها ، بعد أن أظهر الله على أعينهم براءتها

﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ﴾

(آل عمران الآية ٥٩)

﴿ لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ ﴿٧٨﴾ كَانُوا۟ لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ ۚ لَبِئْسَ مَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴾

(المائدة الآيات ٧٨/٧٩)

﴿ اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَٰهًا وَاحِدًا لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾

(التوبة الآية ٣١)

* * *

﴿ يُرِيدُونَ أَن يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَن يُتِمَّ نُورَهُ ﴾

(التوبة الآية ٣٢)

﴿ وَقَفَّيْنَا عَلَىٰ آثَارِهِم بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ وَآتَيْنَاهُ الْإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴾

(المائدة الآية ٤٦)

* * *

﴿ وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُم ﴾

(الصف الآية ٦)

﴿ قَدْ جِئْتُكُم بِالْحِكْمَةِ وَلِأُبَيِّنَ لَكُم بَعْضَ الَّذِي تَخْتَلِفُونَ فِيهِ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿٦٣﴾ إِنَّ اللَّهَ هُوَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَٰذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴾

(الزخرف الآيتان ٦٣/٦٤)

﴿ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ أَنِّي أَخْلُقُ لَكُمْ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنْفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ وَأُحْيِي الْمَوْتَى بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾

(آل عمران الآية ٤٩)

﴿ وَمُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَلِأُحِلَّ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ ﴾

(آل عمران الآيتان ٤٩/٥٠)

* * *

دعوةٌ عاقلة ، ودينٌ هادئ ، ورسالةٌ نيِّرة ، فاختلفوا عليه ، وضنُّوا بهيبتهم أن تزول ، وبسيطرتهم على الناس أن تهون .

وعزَّ عليهم أن تجرفهم رسالةُ عيسى بن مريم ، وقد كان منذ قريبٍ يجلسُ إليهم ويطلبُ العلم بين يديهم ، وكذَّبوه ، وتألَّبوا عليه ، وكادوا له .

﴿ فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنْهُمُ الْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ ﴾ (آل عمران الآية ٥٢)

ومَن هم الذين يستجيبون لدعوتى فى الله ؟ ومَن منكم يؤمن بالله !

﴿ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ آمَنَّا بِاللَّهِ وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾ (آل عمران الآية ٥٢)

والحواريون تلاميذه ومُريدُوه ، والمؤمنون به ومصدقوه ، وهم السابقون الأولون فى دينه ، وهم الحافظون لإنجيله ، الدارسون لكتابه ، المفسرون لآياته ، المسجِّلون لأناجيله ، وهم الذين سُمِّيتْ الأناجيل بأسمائهم ، فإنجيل متى ، وإنجيل يوحنا ، وإنجيل برنابا ، وأناجيل كثيرة .

وقد كتَبَ كل حوارىّ إنجيله ، بحسب ماوعى وروى عن نبيه ، وبحسب ما ترسَّب فى ذهنه من صحبة عيسى ، فقد رفعه الله بغتة من قبل أن يُملى كتابه .

* * *

﴿ فَٱخْتَلَفَ ٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَيْنِهِمْ ۖ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾

(مريم الآية ٣٧)

اختلف بنو إسرائيل شيعًا ومذاهب فى شأن عيسى .

فمنهم الكافرون ، الحاقدون ، الجاحدون ، الذين لا يطيقون أن يكتسحهم عيسى ، بقوة إيمانه ، ونور يقينه ، وهم لا يهتدون ، ولا يرتضون إلا أن يطوُوا صفحته ، ويمحُوا مِلَّته ، ويقضُوا على حياته .

ومنهم الذين آمنوا به على جهالة ، وعُقم فى الفهم ، وإغراق فى الغُلُوّ ، وانهيار فى التفكير ، وزيغ فى العقيدة ، حتى قالوا : إن عيسى ابنُ الله ، وحتى قالوا

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٍ ﴾ (المائدة الآية ٧٣)

وقالوا : الأبُ والابن والروحُ القدس .

ومنهم الحواريون ، وهم المؤمنون الدارسون ، حاملو رايته ، وموثّقو دعوته ومواصلو رسالته ، ومسجِّلو كتابه ، وأنصارُه إلى الله ، وأقربهم مودة للذين آمنوا .

ذلك بأن منهم قسيسين ورهبانًا ، وأنهم لا يستكبرون .

﴿ وَإِذَا سَمِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا۟ مِنَ ٱلْحَقِّ ۖ يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٨٣﴾ وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَمَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَن يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٤﴾ فَأَثَٰبَهُمُ ٱللَّهُ بِمَا قَالُوا۟ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ (المائدة الآيات ٨٣-٨٥)

﴿ وَجَعَلْنَا فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً ۖ وَرَهْبَانِيَّةً ٱبْتَدَعُوهَا ﴾

(الحديد الآية ٢٧)

وأوغلوا فى الخوف من الله ، والانقطاع لعبادته ، رهبةً منه ، واختطوا لأنفسهم هذه الرَّهبنة من قبل أن يَفرِضَها الله عليهم ، تطوعًا منهم وتبتلا ، وما اندفعوا إليها ، إلا ابتغاءَ رضوان الله .

ففريق التزمها ، وأخذ نفسه بها ، وفريق زاغ فيها ، وصدَّ عنها :

﴿ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا فَآتَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ ﴾

(الحديد الآية ٢٧)

* * *

وقال عيسى ، يُذكِّر بنى إسرائيل ، أنهم كانوا أهل كتاب التوراة ، الذى جاءَ به موسى ، ويؤكد عقيدة التوحيد ، قال :

﴿ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَا تَقُولُوا ثَلَاثَةٌ انْتَهُوا خَيْرًا لَكُمْ إِنَّمَا اللَّهُ إِلَهٌ وَاحِدٌ سُبْحَانَهُ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ﴾ (النساء الآية ١٧١)

﴿ لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ أَنْ يُهْلِكَ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ﴾

(المائدة الآية ١٧)

* * *

﴿ لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ وَقَالَ الْمَسِيحُ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ ﴾ (المائدة الآية ٧٢)

﴿ لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا إِلَهٌ وَاحِدٌ وَإِنْ لَمْ يَنْتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾

(المائدة الآية ٧٣)

* * *

فما بالُ هؤلاء الناس ؟ يُسرفون على أنفسهم بالتَّغالى فى حبّ عيسى حتى ألّهوه ، وما هو بإلآه ؟

﴿ مَّا ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٌ ۖ كَانَا يَأْكُلَانِ ٱلطَّعَامَ ۗ ﴾

(المائدة الآية ٧٥)

وما بالُ هؤلاء القوم : يظُنّون بعيسى الظنون ، ويُثقلون عليه ، فكانوا من صَدَقته ، مكانَ الدَّبَّةِ الصَّديقة ، الجاهلة فى صداقة صاحبها وبجَهْلها وحُمْقها جَنَتْ عليه .

* * *

﴿ لَّن يَسْتَنكِفَ ٱلْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ وَلَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ٱلْمُقَرَّبُونَ ۚ ﴾

(النساء الآية ١٧٢)

وما بالُهم أخرجُوه ، وافتَرَوْا عليه ، حتى جعلوه فى موضع التحقيق والسُّؤال من ربه .

﴿ وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ قَالَ سُبْحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِى بِحَقٍّ ۚ إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥ ۚ تَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِى وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِكَ ۚ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿١١٦﴾ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِى بِهِۦٓ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ ۚ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ ۖ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِى كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ ۚ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴾

(المائدة الآيتان ١١٦، ١١٧)

* * *

وما بالُ هؤلاء القوم يتشبثون بالتثليث ، والتثليث كُفرٌ ومُرُوق من حظيرة الأديان .

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ۚ ﴾

(النساء الآية ٤٨)

وما موقفنا نحن المسلمين من هؤلاء ؟ .

وما حكمُ مَنْ يتودَّد إليهم ، ويتخذهم أصفياءَ وأولياءَ ؟ .

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَىٰ أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ ﴾

(المائدة الآية ٥١)

﴿ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ ﴾ ﴿ وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ وَمَا أَعْلَنتُمْ ﴾

(الممتحنة الآية ١)

ومن يفعله

﴿ بَعْدَ ذَٰلِكَ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ ﴾

(المائدة الآية ١٢)

﴿ إِن يَثْقَفُوكُمْ يَكُونُوا لَكُمْ أَعْدَاءً وَيَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُم بِالسُّوءِ وَوَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ ﴾

(الممتحنة الآية ٢)

﴿ لَن تَنفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ ۚ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ ۚ ﴾

(الممتحنة الآية ٣)

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا نُؤْمِنُ بِمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَاءَهُ وَهُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَهُمْ ۗ ﴾

(البقرة الآية ٩١)

﴿ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَاءُ مَنْ يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنْكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰ أَشَدِّ الْعَذَابِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾

(البقرة الآية ٨٥)

وكل متبع لعيسى حوارىّ ، وحوارِيُّوه طبقات ، وفى الطبقات درجات ، ودرجات رسوخهم فى الإيمان مختلفات .

﴿ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ ﴾

(آل عمران الآية ٧)

فاكتبنا مع الشاهدين ، الذين شهدوا مَبْعث النبى العربى محمد ، الذى بَشَّرت به ، فقلت :

﴿ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ ﴾ (الصف الآية ٦)

فآمنا به ، واتَّبعناه ، فَدِينُه مُصدِّقٌ لما بين يديه من التوراة والإنجيل ، وجاءنا بالقرآن فيه هدى ونورٌ للناس .

وقال الذين لم ترسخْ أقدامهُم ، ولم تُفعَم بالإيمان قلوبُهم

﴿ إِذْ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَنْ يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ ﴾

(المائدة الآية ١١٢)

وفزع عيسى فيهم ، من زعزعة إيمانهم ، وتخلخل يقينهم ، وجرأتهم على ربهم ، وقال خائفًا عليهم

﴿ قَالَ اتَّقُوا اللَّهَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾

(المائدة الآية ١١٢)

ولعلهم كانوا جياع البطون ، وجياع النفوس ، وجياعَ الاعتقاد ! ولمح فيهم أثرَ الهبوط ، وسيما الهفوت ، وسحابةَ الشك والقنوط .

ورأى أن يطرق الحديد المحمَّى قبل أن يبرد ، وأن يضىء فى الظلمة قبل أن تحلِك وتدلَهِمَّ ، وأن يمحو الشكَّ باليقين ، وأن يُلزم الحجة ، وأن يأخذهم بما تحدَّوه . حين قالوا

﴿ قَالُوا نُرِيدُ أَنْ نَأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَنْ قَدْ صَدَقْتَنَا وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ الشَّاهِدِينَ ﴾

(المائدة الآية ١١٣)

﴿ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا أَنزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِّنَ السَّمَاءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِّأَوَّلِنَا وَآخِرِنَا وَآيَةً مِّنكَ وَارْزُقْنَا وَأَنتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ﴿١١٤﴾ قَالَ اللَّهُ إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ فَمَن يَكْفُرْ بَعْدُ مِنكُمْ فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ عَذَابًا لَّا أُعَذِّبُهُ أَحَدًا مِّنَ الْعَالَمِينَ ﴾

(المائدة ١١٤/١١٥)

* * *

وياليتهم أشبَعُوا جُوع بطونهم ، ونفوسِهم ، وعقيدتِهم ! حين استجاب الله لعيسى ، وحقّق رغبتهم ، وأجابهم إلى تحدِّيهم ! .

ولكنَّ فريقًا منهم ، ما قَنَعَ بالمائدة ، حين رآها تَنْزِلُ عليهم بين سحابتين ، ولا اقتنع بما زَخرتْ من ألوان الطعام والفاكهة .

فخانُوها ، وحنَثُوا بوَعْدِ الله ، وبوَعْدِ عيسى .

فعذَّبهم الله عذابًا شديدًا ، لم يعذِّبْه أحدًا من العالمين ، يوم همُّوا بعيسى ليقتلوه ، فاختفى ، وألْقى الله شبَهَهُ على يَهُوذا ، الذي غدَرَ به ، ودلَّهم على المكانِ الذى اختفى فيه ، ودخل عليه ، ليُخْرجَه إليهم ، فما وَجَدَه ، وخرج إلى القاتلين وقد ألقى الله شَبَه عيسى عليه ، فأخذه الله به وأخذوه وقتلوه وصلبوه . وما قتلوا عيسى ، وما صلبوه ، ولكن شُبِّه لهم .

﴿ بَل رَّفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴾

(النساء الآية ١٥٨)

* * *